

سلسلة ظلمات الشيعة (٢)

حجة الإسلام الشيخ جاسم الحائري

لحياتهم ولتصرفاتهم ومواقفهم، لأن المؤرخ كان لا يسجل إلا ما يتوافق مع هوى الحاكم، وينسجم ميوله، ويخدم مصالحه، مهما كان ذلك مخالفا للواقع، ولما يعتقده المؤرخ نفسه وبميل إليه.

ومن هنا فإننا لا نفاجأ إذا رأينا المؤرخ يهتم بأمور تافهة وحقيرة، فيسهب القول في وصف مجلس شراب، أو منادمة لأmir أو حاكم، أو يختلق أحداثا أو شخصيات لا وجود لها، ثم يهمل أحداثا خطيرة، أو يتجاهل شخصيات لها مكانتها وأثرها العميق في التاريخ، وفي الأمة^١.

نعم لقد كان لباعة الضمير الدور الكبير في تشويه الحقائق وتزييف التاريخ، حتى بلغ بهم الأمر أنهم للحصول على المزيد من الدراهم والدنانير أخذوا يختلقون الأحاديث وينسبون تارة للنبي وأخرى لأحد الصحابة وثالثة لنفسه، وقد صرح بذلك ابن تيمية على تعصبه، فقال في منهاجه: وطائفة وضعوا معاوية فضائل، ورووا أحاديث عن النبي ﷺ في ذلك كلها كذب^٢.

وقال العيني في (عمدة القاري): فإن قلت: قد ورد في فضله يعني معاوية أحاديث كثيرة، قلت: نعم، ولكن ليس فيها حديث صحيح يصحح من طرق الإسناد^٣.

وقال حماد بن زيد: وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث^٤.

وذكر ابن عدي في (الكامل) عند ذكر عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي قتل في زمن المهدي العباسي، وأنه أخذ لتضرب عنقه قال: وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام^٥.

وقال العقيلي في (الضعفاء الكبير) بسنده عن غندر، قال: رأيت شيعة راكبا على حمار، فقيل له: أين تريد يا أبا بسطام؟ قال: أذهب أستعدي على هذا يعني جعفر بن زبير وضع على رسول الله ﷺ أربع مائة حديثا كذبا^٦.

بل وكما في التاريخ أن المهدي العباسي المغرم بلعب الحمام دفع عشرة آلاف درهم إلى من يصحح له لعبه بدليل من السنة يضعه له فقيه، فزاره غياث بن إبراهيم وروى له قول النبي ﷺ: (لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح) بإضافة لفظ الجناح إلى الحديث الشريف ليصحح له لعبته ويحظى بالجائزة.

وقد أقر المهدي نفسه كذب هذا الوضاع، فقال بعد رحيله: أشهد أن فقاك فقا كذابا على رسول الله ﷺ، ما قال رسول الله ﷺ جناح، ولكنه أراد أن يتقرب

وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة. ومن التابعين عروة بن الزبير^٧.

وقال العلامة الشيخ محمد رضا المظفر رحمه الله في كتابه (السقيفة) حول تأثير العقيدة على المؤرخ: من أشق الفروض على المؤرخ أن ينفذ عن رداءه غبار التعصب لنزعاته الشخصية من دينية أو قومية أو وطنية ونحوها. بل لعله من شبه المستحيل أن ينزع من قلمه لعاء عقائده وأهوائه. فإن النفس تلهم عقل صاحبها التصديق بميولها وعواطفها، وكثيرا ما تقف سدا منيعا بين بصيص عقله والحقيقة، وإن حاول أن يخرج من نفسيته التي ورثها ونشأ عليها، ويتحلل فكره من أسرها وسجنها ليحلق في جو الحق الطليق. وإذا رأيت طائرا أسعده الحظ فتحرر من سجنه فالحقه إذا كنت حرا مثله، فستجد أن جناحه مثقل السجن، وأرجله لا تزال متأثرة بالقيود، فيختلج في رفيفه ويتناقل في طيرانه، وقد يهوي أحيانا إلى الهوة غير مختار. هذا من حاول أن يتحرر من شخصيته الاعتقادية وتأثيرها عليه. أما من يؤرخ لأجل غداء عقيدته، أو يؤلف إرضاء نفسه أو محيطه، فاقراء ألف سلام! وأرجو من الله تعالى أن يوفقني لثلا أكونه. وأظنني غير مبالغ إذا قلت: إن المؤرخين من السلف على الأكثر وأقول لله على الأكثر إذا أردت الاحتياط في القول كانوا من النوع الثاني. بل حتى المؤرخين في عصرنا لا يخرجون عن هذه الطريقة على الغالب. وإن تظاهروا بحرية الرأي وإنصاف الواقع والحق، فظهر جليا بالرغم على المؤرخ نزعتة على قلمه ويتماشى تأريخه وتأليفه مع الروح التي يحملها، فيختار من الأحاديث ما لا يفسد عليه رأيه، ولا يصدق إلا بما يجري على هواه. فكم يكون الرجل عنده كذابا وضاعا، لأنه نقل ما لا يتفق ومبادئه، وكم يكون ثقة صدوقا لأنه لم يرو إلا أحاديث تؤيد طريقته^٨.

وقال العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي في هذا المجال: ولكننا في الوقت الذي نملك فيه أغنى تاريخ عرفته أمة، لا نملك من كتب التاريخ والتراث ما نستطيع أن نؤول عليه في إعطاء صورة كاملة وشاملة ودقيقة عن كل ما سلف من أحداث، لأن أكثر ما كتب منه تتحكم فيه النظرة الضيقة، ويهيمن عليه التعصب والهوى المذهبي، ويسير في اتجاه التزلف للحكام.. إن ما لدينا هو في الأكثر تاريخ الحكام والسلاطين، وحتى تاريخ الحكام هذا، فإنه قد جاء مشوها وممسوخا، ولا يستطيع أن يعكس بأمانة وحيادة الصورة الحقيقية

وقفه مع كتاب التاريخ

كنا قد وعدنا فيما سبق أن نذكر أصل ظلامه الشيعة وأساسها وهي محبتهم لأmir المؤمنين وذريته الأطهار عليهم السلام وأن نبدء ببيان الظلامه الكبيرة التي لا قاهها الإمام علي عليه السلام، ولكن وقبل الشروع في ذلك ينبغي أن نقف وقفة عابرة عند صفحات التاريخ ونشير إلى حقيقة بالغة في الأهمية ألا وهي ضياع معظم الحقائق التاريخية ودور كثير من المؤرخين في ذلك، وكيف أن كثيرا من الظلامات ضاعت وغمرت وأكل عليها الدهر وشرب جراء تحيز المؤرخين إلى الحكام وخوفهم من ذكر الحقائق وتدوينها.

فمن كلام العلامة شرف الدين رحمه الله في كتابه (صلح الإمام الحسن عليه السلام) قال: وقد خسر تاريخ هؤلاء الشيعة انصاف المؤرخين بعد ذلك، ولعب التعصب الذميم دوره المهم في طمس معالم هذا التاريخ أحفل ما يكون بالقضايا البارزة التي كان من حقها أن تأخذ مكانها من عبرة الأجيال. وكان للسلطات الحاكمة عملها في توجيه ما يكتب للتاريخ أو يملى للحديث، حتى فيما يتناول أئمة الشيعة فضلا عن زعمائهم أو سوادهم.

روى ابن عرفة المعروف بنفطويه وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم في تاريخه ما يناسب هذا. قال: إن أكثر الأحاديث الموضوعية في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقربا إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم^٩.

وقال المدائني عن عصر معاوية: وظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القرءاء المرأون، والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجلسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها^{١٠}.

وقال ابن أبي الحديد: وذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي.. أن معاوية وضع قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه. منهم أبو هريرة

و لمن أراد الإطلاع أكثر على نماذج كهذه فليراجع كتاب (العلل المتناهية في الأحاديث الواهية) و (الموضوعات) لابن الجوزي والذي لخصه السيوطي في كتابه (اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة).

أما مؤرخي الشيعة فإن كثيرا منهم وللأسف الشديد لم يوقفوا لكتابة تاريخهم إما تقية من جور الحكام الذين كانوا يتعقبونهم ويترصدهم، أو أنهم كتبوا ولكن مصنفاتهم تلفت مع التراث الشيعي العظيم الذي أتلف وهو الأرجح، وكشاهد على اتلاف التراث الشيعي ننقل ما نقله ابن الجوزي في المنتظم في أحداث سنة ٤٢٠ قال: وحوّل السلطان محود الغزنوي من الكتب خمسين حملا ما خلا كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض فإنها أحرقت تحت جذوع المصلوبين إذ كانت أصول البدع^{١٣}.

كما أحرقت مكتبة الصاحب بن عباد التي قال عنها أبو الحسن البيهقي: وجدت فهرست تلك الكتب عشر مجلدات، فإن السلطان محمود لما ورد الري قيل له: إن هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه^{١٤}. وقد غالى الأيوبيون في القضاء على كل أثر للشيعة، فبعد انقراض دولة الفاطميين ألقى بعضها في النار، والبعض الآخر في النيل، وترك بعضها في الصحراء فسفت عليها الرياح حتى صارت تلالا عرفت بتلال الكتب، واتخذ العبيد من جلودها نعالا^{١٥}.

وفي عهد طغرلبيك السلجوقي أحرقت كتب الشيخ الطوسي في رحبة جامع النصر، كما أحرقت مكتبة بيت الحكمة التي أسسها سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن بويه وكانت من أغنى دور الكتب في عاصمة العباسيين والتي قال عنها ياقوت: لم يكن في الدنيا أحسن منها وكانت كلها بخطوط الأئمة المعتمدة. وأصولهم المحررة^{١٦}.

وقد احترقت عند ورود طغرلبيك أول ملوك السلاجقة لأنها كانت خاصة بالشيعة^{١٧}.

وقال ابن كثير في حوادث سنة ٤١٦ هـ في ترجمة سابور بن أردشير: كان كثير الخير سليم الخاطر إذا سمع المؤذن لا يشغله شيء عن الصلاة وقد وقف دارا للعلم في سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها كتب كثيرة جدا ووقف عليها غلة كبيرة فبقيت سبعين سنة ثم أحرقت عند مجيء طغرل في سنة ٤٥٠ هـ وكانت في محلة بين السورين^{١٨}.

وقال الحموي لدى ترجمته لمحلة ما بين السورين

في كتابه معجم البلدان : بين السورين ، اسم لمحلة كبيرة كانت بالكرك وبها كانت خزانة الكتب التي وقفها وزير بهاء الدولة ولم تكن في الدنيا أحسن كتبها كانت كلها بخطوط الأئمة المعتمدة وأصولهم المحررة و احترقت في ما أحرق من محال الكرك عند ورود طغرل بك أول ملوك السلجوقية لبغداد^{١٩}.

وقال ابن كثير أيضا في ترجمة الشيخ أبي جعفر الطوسي من حوادث سنة ٤٦٠ هـ: أحرقت داره بالكرك وكتبه سنة ٤٤٨ هـ.

وفعل أكثر من ذلك مع مخازن كتب الخلفاء الفاطميين بمصر كما ذكره المقرئ في ليدى ذكره للخزانات التي كانت في قصر الفاطميين، فقال عن خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا: ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ويقال: إنها كانت تشمل الف وستمئة ألف كتاب، وقال قبلها (أخذ جلودها عبيدهم وإماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلها وأحرق ورقها تؤولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان وأن فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصارت تلالا باقية إلى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب^{٢٠}.

وقد فعل أكثر من ذلك مع خزائن كتب الخلفاء الفاطميين بمصر عند استيلاء صلاح الدين على الحكم.

وعلى كل فإننا سنفرد لظلامه اتلاف التراث الشيعي بحثا مستقلا بحول الله في المستقبل، ولكننا نقول: إن هذا ليس غريب على الشيعة الذين ألغوا ظلامات كهذه، منذ ضاع الحق وزوي عن أهل بيت العصمة والطهارة ﷺ حيث أحرقت دار العلم وتركوا باب مدينة العلم جليس الدار حتى أنهم استغنوا عن قرآنه الذي خطه بيده المباركة.

وقد تعلم الأمويون والعباسيون ممن سبقوهم وصاروا يؤكدون على سياسة احراق التراث بشدة، وكشاهد على ذلك لا بأس أن ننقل ما ذكره ابن سعد في طبقاته، قال: وروى الزبير بن بكار أن سليمان بن عبد الملك في زمان ولايته للعهد مر بالمدينة حاجا، وأمر أبان بن عثمان أن يكتب له سير النبي ﷺ ومغازيه فقال أبان: هي عندي أخذتها مصححة ممن أتق به، فأمر عشرة من الكتاب بنسخها فكتبوها في رق، فلما صارت إليه نظر فإذا فيها ذكر الأنصار في العقبين يقصد بيعة الأنصار في العقبين الأولى والثانية وذكر الأنصار في بدر، فقال سليمان: ما كنت أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل فأما أن يكون أهل بيتي أي الخلفاء الأمويين

غمصوا عليهم، وأما أن يكونوا ليس هكذا، فقال أبان بن عثمان: أيها الأمير! لا يمتعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم يقصد الخليفة عثمان من خذلانه، أن نقول الحق. هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا. قال سليمان: ما حاجتي إلى أن أنسخ ذلك حتى أذكره لأمر المؤمنين يقصد والده عبد الملك لعله يخالفه، فأمر بذلك الكتاب فحرق، ولما رجع أخبر أباه بما كان فقال عبد الملك: وما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل تعرف أهل الشام أمورا لا نريد أن يعرفوها، قال سليمان: فلذلك أمرت بتحريق ما نسخته حتى أستطلع رأي أمير المؤمنين فصوب رأي^{٢١}.

خلاصة القول إن مؤرخي الشيعة رغم ظروفهم الحالكة لم يقصروا عن حفظ التراث وتدوينه، ولكن محاربة الحكومات الجائرة عبر التاريخ لهذا التراث وتحريضهم للمتلفين كي يكتبوا المزيفات ويدونوها كتاريخ يتناقل للأجيال عبر العصور ضيقا علينا خناق العثور على الحقائق المهمة، ولو أردنا ذكر الشواهد على حرص الشيعة في حفظ التراث لطلال المقام بنا، ولكن يكفي في ذلك مراجعة كتب التراجم وكتابي (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) للطهراني و(تأسيس الشيعة لعلم الإسلام) للسيد حسن الصدر.

وبالرغم من ذلك كله ولكي نوصل الظلامه للعالم الأكبر فإننا سنتصيد ما بين السطور ونجمع الفلتات والشقشات التي بدرت من المؤرخين لنعكس صور المظلومية التي صبت على الشيعة على مر التاريخ.

١. شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٥.

٢. شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ١٥.

٣. شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٦٣.

٤. صلح الإمام الحسن عليه السلام ص ٣٢٥.

٥. السقيفة ص ١٦ ١٧.

٦. الصحيح من سيرة النبي الأعظم ج ١ ص ١٠ ١١.

٧. منهاج السنة ج ٢ ص ٢٠٧.

٨. عمدة القاري ج ١٦ ص ٢٤٨.

٩. الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٢٨.

١٠. ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٦٤٤.

١١. ضعفاء العقيلي ج ١ ص ١١٨.

١٢. تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢٢٠.

١٣. المنتظم ج ٤ ص ٣٤٩.

١٤. معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٥٩.

١٥. تاريخ التمدن الإسلامي ج ٢ ص ٤١٠.

١٦. معجم البلدان ج ١ ص ٥٣٤ مادة بين السورين.

١٧. راجع الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٧ ص ١٩٣.

١٨. البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤٤.

١٩. معجم البلدان ج ١ ص ٥٣٤.

٢٠. خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٥.

٢١. أخبار الموقتيات ص ٣٢٢ ٣٢٤.